رؤى

الطفلة الأُم ومعلمة تنسج حلمها من خيوط الفقد

روند المصري

تقديم

لم أكن أتخيل أن فكرةَ كتابة قصتي سوف تستحضر لديَّ كُلَّ تلك المشاعر والأفكار، حيث تجولتُ عبر طرق الذكريات، وطرقتُ أبواباً لم تُفتح منذ زمن بعيد، وفتحتُ صناديق مملوءةً بأوجاع وفرح وحكايات، ولقد أدركتُ، وأنا أحاولُ لملمةَ الحكاية ونسجَها، أنني أسترجع كلَّ حياتي مثل شريطٍ كامل، وأنا بذلك أسترجعُ ذاتي وتكوُّني ووجودي وفهمي لنفسي ودوري. ولا أدري تحديداً لماذا تأسرني البدايات، وأوائلُ الأشياء، ربما لأنني لا أحب النهايات، أو ربما لأن البدايات هي سرُّ تكوُّني وما أنا عليه، فأذكر معلمتي الأولى (جدتي) ومعلمتي الأولى، مدرستي الأولى، الصف الأول، الحصة الأولى، الطفل الأول، الدمعة الأولى والضحكة الأولى.. كلُّ البدايات حاضرة، وكل المحطات والتحولات في حياتي كأنها أمامي أشاهدُها مثل فيلم طويل أنتقي منه لأسرد حكايتي، حكايتي كإنسانة ومعلمة وطالبة وطفلة وأم وزوجة، في تشابك وترابط عجيب، بكل ما مرَّ في حياتي من التوافق والتناقض والفرح والحزن والإخفاق والنجاح والرضا والسخط.

ومع سرد الحكاية كانت تُباغتُني الدموعُ أحياناً، وأبتسم أحياناً أُخرى، أكتب وكأنه لا يُمكنني التوقفُ عن الكتابة، وأقف وكأنه لا يمكنني الكتابة، لامَسَت الكتابةُ في داخلي الكثير من مشاعر الحنين والتعب، والفرح والشقاوة، والمحبة والسلام، والخوف والامتنان ... خليطٌ لم أتمكن من التعبير عنه ببراعة، لكنني أشعرُ به كحلم راوَدَني وأسعدني، وتذوقتُ فيه طعماً لاذعاً من المرارة والسعادة، ثم نسيته عند الصباح، أذكرُ طعمَه ولا أذكرُ تفاصيله، إلا ما تمكنتُ من استرجاعه وأنا أناضل لأفهمَ ذاتي ومَن أنا؟ منذ أن كنت طفلةً صغيرة قبل سن المدرسة وما زالت تلك الطفلةُ تلحُّ عليَّ في السؤال، من أنا؟

في الصف الأول انتصاري الأول

في داخلي طفلةٌ لا تريد أن تكبر، طفلةٌ لم تتجاوز أعوامَها الستة، أذكرها جيداً عندما حملت حقيبتها الصغيرة في أول رحلة لها، وهي تصل أولَ محطة في رحلات تعلُّمها الطويلة والمتعددة، تصل مدرستها وتجد مَن هن في مثل عمرها يبكين، تكرهُ المكان بشدة، وتودُّ لو بإمكانها الرحيلُ والعودة مع والدها.

دخلَت الفصل لتجده مزيَّناً بالألوان والرسومات الجذابة، وخلال تأمُّلها ونظرات استكشافها لذلك المكان الجديد في حياتها بكل جاذبيته ورهبته، تدخلُ المعلمة بملامحها التي تدل على تقدمها في السن، وتظهر خلف تجاعيد وجهها القسوة، يسري الرعبُ داخل طفلتنا، ويبدأ

جسدُها يرتجف وهي تنظر إليها، لتفاجئنا المعلمةُ بطلب غريب «جميلاتي، مَن منكن تحب أن تغني لنا شيئاً لنمرح قليلاً»، أرسلت نظرَها هنا وهناك تنتظر مَن تلبي طلبَ المعلمة، ولكن ما من مُجيب.

راودها إحساسٌ بأن المعلمة طيبةُ القلب من نظرتها، ثم قرَّرت المغامرة، فهي الملقَّبة بالطفلة الشقية للعائلة. بدأت الغناء وصوتُها يرتجف.. لحظات وبدأت الراحةُ تظهر على صوتها، وبدأت الفتيات مشاركتها الغناء والتصفيق. استُبدل البكاء بالضحك، عندها وقفت المعلمة وقالت «صغيراتي أنا أحبكن جداً». ومع هذه العبارة من المعلمة تشعر تلك الصغيرة بنشوة النصر في أول إنجاز لها وأول خطوة نحو النجاح، لقد تقدمت حين تراجع الصفُّ وعلا صوتُها بألحان راجفة، لكنها جريئة، كان أولَ حاجز تكسره، وأول لحنٍ تغنّيه، وأول منبر تقتحمه بجسدها الصغير وشجاعتها الكبيرة، كانت أولى الخطوات نحو تحقيق انتصار، انتصار بسيط لكنه مهم وفارق في حياة تلك الطفلة الصغيرة. لقد ساعدها ذلك الانتصار على أن تحب المكان، وانتهى يومُها الأول حيث عادت إلى بيتها بشوق لمزيد من المغامرة ولمزيد من الانتصارات. لقد رافقها أثرُ هذا اليوم طوال الأعوام الدراسية، حيث إنها اختيرت كمسؤولة للإذاعة المدرسية في جميع المدارس التي ارتادتها، وعريفةُ حفلٍ للثانوية العامة في كل عام، ولم تخلُ الاحتفالات من فقرة شعرٍ تُلقيها على مسامع الحضور. ربما هو سحر الخطوة الأولى والانتصار الأول.

جدتي ... معلمتي الأولى

معلمة أخرى هي معلمتُها الأولى بحق، كانت تسكن معها في بيتها الذي عادت إليه، معلمةٌ من التاريخ والحاضر والمستقبل، معلمةٌ تصلها بالدم والحب والفرح، كانت روحُها معلقةً بمعلمتها تلك، وهي جدتها التي كانت تجلس معها بالساعات وهن يضحكن ويلعبن ويمرحن ويقرأن القرآن معاً.

كانت جدتُها تُلقي على مسامعها أبياتاً من الشعر لقصائد ومعلقات طويلة حفظتها منذ زمن بعيد عندما كانت في الصف الرابع الأساسي. كانت تبدو في قمة سعادتها حينها، فقد كانت تعشق ذلك الذي يسمى شعراً، وأولُ ما لفت انتباهَها للشعر هو هذه الجدة المثقفة، طيبة القلب تحمل بين يديها حناناً يسع الكون، ما أن تبكي طفلتُنا أو تحزن حتى تركض للاختباء بين ذراعيها. كان من طقوسهم الجميلة يوم الجمعة وقبل صلاة الظهر ختمُ القرآن سوياً، والذي قضت الجدة طوالَ الأسبوع لإنهاء تلاوته، ثم توزع الحلوى على الأطفال في هذه المناسبة.

كانت تستيقظُ قبل الفجر بساعات، تطهو أجمل الطعام، فيستيقظ الجميعُ على أطيب رائحة ملأت المكان، وهي رائحة الخبز اللذيذ. كانت ترى ذكاءَ طفلتها وتقول لها: عليكِ أن تكوني مبدعةً في الرياضيات كخالك، والذي يحملَ أعلى الدرجات العلمية فيها تفوق الدكتوراه بمراحل. حلموا معاً وخططوا لكل شيء، بدءاً بالثانوية العامة وانتقالاً لمرحلة الجامعة. لم تكن تعلم أنه تخطيطٌ لن تفرح بلذّته فيما بعد، ففي يوم ما تنطفئ الضحكاتُ وتُعلن بدايةُ الفراق، وهو الفراق الأول الذي تدركه هذه الطفلة في ربيعها الخامس عشر، كان فراقاً سريعاً بلا مقدمات. قبل أيام كانت هنا معها تحمل حقيبةَ كُتبها وتقرأ، لكنَّ جلطةً دماغية تسرق الجدة والحلم، ليبقى فقط كيسٌ من الكتب والقرآن، وكأسُ ماءٍ كانت أمس تشرب منه، وبقايا وعدٍ للجدة أن أكون كما أرادت لي وكما خطَّطنا معاً. كانت مرحلةً صعبة، فما أصعب الفقد، حين فقدَت تلك الطفلة معلمتها الأولى وجدتها، لكنها لم تفقد حلمها بأن تكون يوماً ما تريد.

أمي باسمة الوجه... علمتني الكفاح وأدخلتني الجامعة مبكراً

يبدأ عام الثانوية العامة وهي تكابد وتجدُّ لتُفرحَ عائلتَها وتحققَ حلم الجميع. لقد كانت طفلةً لأبوين يشجعان التعليم، ويطمحان لإكساب أبنائهم أعلى الشهادات، فهنا أبٌ حنون يتمنى لو يستطيع أن يقدمَ لأطفاله كل شيءٍ مع كدِّه وعرَقه لتوفير لقمة شريفة صعبة وهي لقمة العيش، يتعب نهاراً ليجلبَ لهم، ليلاً، الهدايا والحلوى، وهنا أمٌ تزوجت بعد إنهاء الثانوية العامة بنجاح، وأنجبت طفلين، وحلمُها أن تكمل تعليمها الجامعي يراودُها حتى اتخذت الخطوة المهمة والدعم من زوجها، وهي أمٌ لطفلين صغيرين، وثالثهما سيأتي بعد شهر، لم تكن حياتها فترة تعليمها مكللةً بالورود، بل بالمشقة والصعاب. أذكر أنني كنتُ أرافق أمي في ساحات الجامعة وأحْضرُ معها محاضراتها، فقد حضرتُ المحاضرات واقتحمتُ ساحات الجامعة في وقت مبكر، ومرت سنون دراستها الأربع بنجاح بسبب إصرارها، وأصبحت معلمةً محبوبة

من الجميع. هذه هي أمي باسمةُ الوجه كما أُسميها. أمي التي أورثتني وحملتني جيناتٍ من الإصرار والجلَد، وأخذتني بيدي إلى طريق النجاح، وعلمَّتني الدرسَ الأول في أن الأحلام تتحقق بالإرادة، وأن لا شيء يقف في طريق نجاحنا سوى كسلِنا، ربما هي لم تقصد أن تعرَّفني على الجامعة في صغري، وأخذتني لأنها لم تجد مكاناً تُبقيني فيه حينها، لكنها لم تعرف أيضاً أنها بذلك قد علَّمتني الدرس الأهم في حياتي، والمحاضرات الأهم: أن لا حدود للحلم والنجاح مهما كانت الظروف.

على طريق السوسنة

يمر العام بكل صعوباته، وتحين اللحظة الحاسمة لقطف الثمار، فإما فوزٌ أو خسارة. هنا الجميع ينتظر إعلانَ نتيجة ابنتهم وهي تراهم متوترين، خائفين، يرتجفون. تتجمد مشاعرها فلا تقوى على التعبير، وتحين اللحظة الحاسمة لتسمع اسمها بالمذياع يعلن نجاحَها في امتحان الثانوية العامة الفرع العلمي بامتياز، وبمعدل اثنين وتسعين، فتسقط من عينيها دموعُ الفرح، ويركضُ الجميع لاحتضانها والمباركة لها وقلبُها يرتجف فرحاً بنجاحها، وحزناً على الجدة التي لم تشهد هذا اليوم الذي طالما انتظرته.

تبدأ مرحلةُ الدراسة الجامعية، هذه المرة دون أن تمسك أمُّها بيدها، تختار تخصُّصَ الرياضيات التطبيقية بلا تفكير تحقيقاً للوعد، يبدأ العامُ الدراسي الأول، ويزيد عدد صديقاتها كونها بشوشةَ الوجه وقريبةً إلى القلب، كما يقولون. من أعز صديقاتها على قلبها كانت سوسن، فهي تدرس الرياضيات ولكنها في العام الثالث، حيث تكبرُها بعامين، تعرفتا صدفةً وتوطدت العلاقات بينهما لتصبح زياراتٍ بيتية وجلساتٍ طويلة لا تخلو من المرح والدراسة، فكانت سوسنُ محفزةً لها، عندما تشعر بضغط الدراسة تلجأ إليها وتساعدها، باختصار كانت ضحكةٌ من (سوسنتها) تعيدُ لها المرحَ والأمل والتفاؤل.

في نهاية العام الدراسي الأول، وقبيل الامتحانات النهائية، تشتاق لصديقتها فتهاتفها للاطمئنان عليها والضحك قليلاً كما اعتادتا، هناك شيءٌ غريب، حيث لم تكن سوسن هي من ردت على الاتصال بل أخوها، تخبره أنها تود الحديثَ مع صديقتها، ليرد ألم يصلك الخبر؟ أي خبر؟ لقد كانت معي في الصباح داخل أروقة الجامعة، سألته هل هي مريضة؟ أجاب يا ليت كل المرض بها ولم تذهب.

أطفال وأهالٍ يشاركون في فعالية "الكون في قشرة جوز".

غاب عقلي عن الوعي ولم أعد استوعب شيئاً. هل يهذي هذا الفتى؟ بدأتُ بالصراخ وقلتُ له دعني أحدثها، ستُشفى عند سماع صوتي، فهي تحبني كما أحبها. علا صوت بكائه وكأن قدرته على التحمل قد انهارت. «سوسن تغمدها الله برحمته ادعي لها» كانت كلماتُه الأخيرة وأغلق الخط. أصابني الجنون، هل أحلم أم هذا حقيقي، بكيت كثيراً وسألت جميع من أعرف، والكل يؤكد لي أن لا سوسنَ بعد اليوم. «هي صغيرة وجميلة، لم تذهب وتتركني؟» قلت.

ذهبتُ لعزاء صديقتي ورفيقتي ومن كانت قطعةً مني، كنتُ أجلس في بيتها وأنا أذكر كم ضحكنا في هذا المكان نفسه الذي نبكي فيه الآن. بكيتُها في كل مكان كنا فيه سوياً، داخل أروقة الجامعة والساحات والكافتيريات، لم يعد بإمكاني الذهابُ لهذا المكان وكرهته بشدة، كنت أشعرُ بأنني أختنقُ داخلَه.

الصراع الداخلي هنا كبير بين مشاعري وتخبطي، وبين وعدي لجدتي وتلبية حلم سوسنتي، فهي كانت تحب هذا التخصص بشده وترغب في حمل شهادته. راودني شعورٌ بضرورة تغيير الجامعة وربما التخصص، ولكن كان صوتُ ضحكات سوسن يلاحقني ويدعمني، وكأنها رسائلُ لي أن أُكملَ هذا الطريق وإن كان صعباً ... مرت السنوات الأربع الثقال لأتوَّج بروب التخرج وأحمل شهادتي بيدي وقد كُتب فيها (تقر إدارةُ جامعة بوليتكنك فلسطين منحَ الطالبة روند المصري درجةَ البكالوريوس تخصص الرياضيات التطبيقية).

فقد آخر... هذه المرة كان قطعة من قلبي

خلال هذه الأيام، كانت قد تزوَّجَت، ولكن الحلم لم يكتمل، بدأت خطوتُها الثانية في التعليم. بدأ العامُ الدراسي الأول من دراسة ماجستير أساليب تدريس الرياضيات، وهنا كانت البداية، حيث إنها كانت تحمل في أحشائها طفلاً، تتساءل كيف ستكون أيامُها معه؟ كيف ستكون أماً وهي تدرس وتلعب، باختصار، وهي طفلة؟

تضع طفلَها الأول وهي في منتصف العام الدراسي الأول ... وتمضي بضعةُ شهور ويكبرُ طفلُها ليصبح في شهره السادس، طالبة تضطر لترك طفلها للعودة إلى دراستها للعام الثاني بعدما أنهت العام الأول بصعوبة كبرى، خاصةً آخر أشهر حملها، تضعُه في مكان خُصص للعناية به وبغيره. تمر الساعات ببطء على أُم تترك طفلها لأول مرة، ودقات قلبها تصبح أعلى من دقّات الطبول في احتفالات الميلاد، تعود محملةً بالحب والقلق والخوف والشوق لاحتضان طفلها ورؤيته، تبحث عنه هنا وهناك ولا تجده، قيل لها إنه تعرض لحادث بسيط ونُقل إلى المشفى، تركض وقلبُها يتسارع كتسارع حبات المطر في الشتاء القارس لتجدَه على سرير الشفاء وحوله أكثرُ من خمسة أطباء يحاولون إعادة النبض إليه. كيف يمكن لطفلة أن تتحمل هذا المشهد؟ فتخر على الأرض تحاول وتحاول ولكن...

يمر اليومُ تلو اليوم وما زال وضعُ طفلها على حاله، بل من سيئٍ إلى أسوأ، وبعد مرور سبعة أيام من وضع الطفل الذي وصل المشفى في حالة يُرثى لها، لم يصله أكسجين الحياة إلى الدماغ قرابةَ العشرين دقيقة.. تلفٌ في معظم خلايا الدماغ، إجماعٌ من قِبل الأطباء على ضرورة فصل الأجهزة عن جسد الطفل ليودعَ الحياة بعد أخذ موافقة الأبوين. الكرةُ بملعب الأُم حتى اللحظة، هل يجدر بها أن تقرر موت جزء منها؟ كيف لها أن تتحمل هذا الكمَّ من الألم؟ تعلم أنه قدرٌ وأن ما كُتب سينفذ بأمر الله، حملٌ ثقيل وقرارٌ أصعب، تسجد لله راجيةً منه أن يساعدها ولا يترك القرار بيدها، خائفة، تنتظر معجزةً تجعله يستيقظ.. أملٌ صعب ولكنه عند الأم أمل.

يصدحُ صوتُ أذان فجر ذلك اليوم معلناً الرحيل الثالث في حياة هذه الطفلة الأُم، رحيلُ قطعة من الجسد، رحيلُ روح الأُم. هنا أم في مقتبل عمر العشرين تقف في بيت العزاء لتلقّي عزائها بطفلها.

مع الموت تبدأ الحياة، صراعٌ بين اليأس والأمل، الانعزالُ عن الحياة والاستمرار لتحقيق الطموح، صراعاتٌ عديدة داخلَ هذه الفتاة، تتحول إلى أُنثى لا تقبل أن تضعف وتختار تحقيق الطموح، يمر العامُ الصعب بسلام، وتتوَّجُ بـ«روب» التخرج مرةً أُخرى أمام الجميع.. صبرت وتحملت فنالت. تمر الأيامُ وتصبح طفلةً بدور معلمة داخل الغرفة الصفية ترافق طالباتها، لم تشعر أنهن طالباتُها يوماً، بل صديقاتها، تقف بكل حيوية لتشرح مادة الرياضيات، فالطفلة التي لم تكبر بداخلها، هنا كانت مسعفةً لها، محفزةً لها أن تبدع. أخذت على عاتقها أن تُحدث

التغيير، تعبت، اجتهدت، طوَّرت من أساليب التدريس للمادة الجامدة البحتة غير المحبَّبة لتجعلها مادةً مرحةً جميلة بألعاب تعليمية من صُنعها.

أم فاقدة ومعلمة صغيرة تتمسك بالأمل وتصنعه

نماذج من ممارستي ودوري كمعلمة

كانت أولَ حصة تعليمية لطالبات الصف التاسع، حينما دخلتُ الصف كنتُ أحمل برأسي أفكاراً عديدة لا أعلم من أين سأبدأ، وأفكاراً من معلمات سابقات بضرورة فرض الشخصية كونها حصةً مصيرية، ولكن ما حدث كان مفاجئاً، فعندما دخلتُ غرفة الصف بدأت أسمعُ نداءات من طالبات كثيرات يردنني أن أجلس بجانبهن، ويُردن التعرف عليَّ ومن أي مدرسة قدِمت، على اعتبار أنني طالبةٌ جديدة ولست معلمة.

موقفٌ استوقفني التفكير به وتغيير ما كنت أحمله من أفكار قبل دخول الصف، ضحكتُ، ومن ضحكتي بدأ المزاحُ وشعرتُ أنني واحدةٌ منهن. حينها أخذتُ على عاتقي ألا أخيِّبَ آمالهن بعد الإفصاح عن هويتي، وسأجْهَدُ لأكونَ المعلمة والصديقة في آن، وأن أمدَّهن بالأمل الذي يحتجن إليه، فحجم الألم الذي بداخلي يجعلني أقدِّرُ مدى حاجة الآخرين للفرح، فأنت عندما تمنحُ الآخرين السعادة ستنتقلُ إليك بشكل أو بآخر، فاليدُ التي تعطي الوردَ تبقى فيها رائحتُه.

لن أنسى تغيُّرَ ملامح وجوههن حينما أخبرتهن مَن أكون، «أنا معلمتكُن الجديدة، وسندرس الرياضيات معاً بطريقة جميلة».. جلسن في مقاعدهن وهن يتبادلن النظرات. ربما كانت نظراتُ عدم ثقة أو تعجُّب أو تساؤل.. كيف لهذه الصغيرة أن تكون مَعلمةً لنا؟ على اعتبار أنهن أطولُ مني وأضخم حجماً. كنت أخطط لأن أقفَ بحزم في أول حصة دراسية، ولكن وأنا بهذا الموقف، سمعتُ صدى صوتي يخبرهن «بأنني الصديقة قبل المعلمة وهذا وعد.. ستجدنَني دوماً بقربكن داخل وخارج الحصة الدراسية». علت وجوهَهن الراحة والابتسامات، وانطلق السؤال المهم لهن «كم عمرُك مِس؟» أجبت «كما ترينَني».

في إحدى الحصص، كنت أشرح درسَ (ميل الخط المستقيم) لطالبات الصف التاسع بكل حيوية ونشاط،

من فعاليات "حزيران الطفولة" الذي ينظم بشكل سنوي في مركز المعلمين في نعلين.

حيث إنني أخذت على عاتقي تغيير التوجُّه نحو الرياضيات، وأن أبدأ من داخل غرفتي الصفية، وقمتُ بالتحضير لدرسي على شكل قصة لفتاة طموحة، فاجأنا يومها دخولُ مديرة المدرسة لحضور الحصة. كنتُ أعبر بالطالبات عبر الميل والقصة معاً، حيث إنها قصةٌ سيَّرتُها لتلبي الدرسَ ومتطلباته وتوصيل الفكرة دون ملل، بل بالتشويق والتفكير، وانتهت الحصة بحمد الله بنجاح أكثر مما خططتُ له وتخيلتُه. لن أنسى تعليق مديرتي عندما خرجتُ من الحصة، حيث قالت لي «محظوظات طالباتُك بك، مِن المفترض أنها جلسةٌ تفقدية وألا أجلسَ أكثرَ من خمس دقائق، ولكن مُتعتي في الأسلوب القصصي مع المحتوى التعليمي في الرياضيات جعلني أتشوقُ ربما أكثر من الطالبات لأن أصلَ للنهاية، شعرتُ للحظة أنني لا أودُّ للحصة أن تنتهي، جميلةٌ أنت كالفراشة، تعطين السعادة والطاقة والمرح، فتجوُّلُك بين طالباتك أنساني أنك المعلمة للحظات، وشعرتُ أنكِ الرفيقة في التعلم».

عندما خططتُ للدرس، كان هدفي أن أقدم المعلومة الرياضية بطريقة ممتعة، ولكن حينما أضفت اليه الطموح والوصول إلى الهدف برزت قيمةُ التعلم، وكان هذا تميزاً بالنسبة لي ولطالباتي. أسعدني جداً تعليقاتهن بعد انتهاء الحصة بأننا سنكون كهذه الفتاة دوماً، لن نيأس وسنصعدُ إلى القمة في الرياضيات وفي الحياة.

رافقت طالباتي خارج جدران الغرفة الصفية، أكتبَ اليومَ وأنا أشعر بالسعادة لاكتساب محبتهن ووثوقهن بي، فبعضُهن فتحن لي قلوبهن واستشرنني بمشاكل شخصية. كنتُ أعمل جاهدةً على أن أكون دوماً المصباحَ الذي ينير لهن، لن أنسى أنني تناقلتُ ما علَّمَتني إياه جدتي من حب الشِّعر وتعليمه وإبداع إلقائه رغم تباعد التخصصات، إلا أنني نقلتُه حين وجدتُ لدى طالبة من طالباتي ميولاً وإبداعاً لكنه غيرُ مُستغل، فجلستُ معها مرات عديدة وقمت بتشجيعها، وفاجأني جداً أن أول ديوانٍ شعر كمبتدئة أهدته لي، حيث فوجئتُ وأنا أتصفحه وأقرأه أن جميع أبياته كانت تتحدثُ عني ولا شيءَ آخر، كمعلمة وكرفيقة وكصديقة، ولم تنسَ أن تكتب حتى عن الضحكات التي تبادلناها سوياً. كنتُ أشعر بقمة الفرح والسعادة عند دخولي غرفة الصف في نهاية أول عام أدرّسُ فيه، وأنا أجد الصف تحوَّل إلى ساحةٍ للحفلات لا تخلو من البالونات والكعكات اللذيذة والورود، وقد كُتب على سبورة اللوح «مِس رورو نحن نحبك جداً جداً».. كانت أجواءُ الاحتفال هذه رائعة، فضحكنا ورقصنا سوية، ولم أشعر بأنني تلك المعلمة، بل عدتُ الطفلةَ التي ترقص فرحاً لقطعة حلوى. وبينما كنت أقف في إحدى صباحات الإذاعة المدرسية، فاجأتني جداً إحدى طالباتي تقف لتُلقي شعراً عن أفضل معلمة وأطيبها قلباً، كانت طريقةُ الإلقاء جميلةً جداً، لدرجة أن الجميع بمن فيهن المديرةُ أصبحت تتوق لمعرفة مَن المعلمة التي نَظَمت لها الطالبة هذه الأبيات، ولحُسن حظي يومها كنت أنا. لن أنسى دموعي التي سالت عند ذكر اسمي والتصفيق الشديد من جميع طالبات المدرسة، فلحظةٌ كهذه ربما جعلتني أحمد الله على إصراري على أن أُكملَ الطريقَ رغم الألم.

للأسف، إننا حين نتعامل مع الطالبات نتعامل معهن كأرقام، فكيف لنا أن نحكم على إنسان بأنه صفر لمجرد أن تحصيل علاماته هكذا؟ أنسينا أنه بشر يشعر ويتألم؟ كيف لنا أن نُلقي بمشاعره خلف ظهورنا وننطلق كمعلمين مميَّزين؟ ما أعادني لهذه النقطة هو طالبة أذكرُها كانت تجلس في المقعد الخلفي، لن أُبالغ حينما أقول إنني كنت أسعى لمشاركة الجميع داخل الحصة، لكون جو الحصة يختلف عن جو الحصص التقليدية، ولكن هذه الطالبة لم تشارك ولا مرةً واحدة. مرةً كنتُ أقف مع بعض الطالبات في ساحة المدرسة وأراقبها من بعيد، رأيتُها تودُّ المجيء نحونا، خطوةٌ للأمام وربما عشرٌ للخلف، وهنا قررت المبادرة، تركت الطالبات وتوجهت نحوها، ما أن تبسمتُ بوجهها حتى اختبأت بين ذراعي وبدأت بالبكاء، للحظة تشنجتُ قبل أن أربِّتَ على كتفها، بعدما هدأت بدأتُ الحديث «أنا أحبك مثل أُمي ولكنها تركتني»، ما أن أنهت هذه الجملة حتى بدأتُ بالبكاء معها وضممتُها أكثر، شعرتُ أن خلفها قصةً من الصعب لفتاة في الصف السابع الأساسي تحمُّلَها، اتفقنا على أن نكون أصدقاء وأن تثق بي، وأنني سأساعدها بما أستطيع، فَرِحَت بشدة وهدأت. كان من أهم أسئلتي كمعلمة «لمَ لا تشاركين معنا؟» قالت إنها تخشى سخرية زميلاتها، فكرتُ كثيراً كيف أساعدها في أن تتجاوز ذلك الخوف ... تعددت لقاءاتي بها والحديث معها، إلى أن قررتُ أن أجازف بفكرة ربما لن تروق للبعض، ولكن كل ما يشغل بالي الآن هو مساعدتها على تجاوز القلق والرهبة. جلستُ معها لوحدها وشرحتُ لها درساً من المفترض أن أُعطيه للطالبات اليوم الذي يليه، كانت المفاجأة أنها تفهمني،

وعندما أسألها تجيب إجاباتٍ قريبةً للصواب، ساعدتُها في معرفة الإجابات الصحيحة، وخصوصاً على السؤال الصعب الذي أنوي طرحَه فيما بعد، طلبتُ منها أن تثق بي وأن تجيب أمام الطالبات، رأيتُ في عيونها الخوف والقلق، ربتُّ على يديها وقلت «لا تخافي فأنت صديقتي». لن أبالغ إن قلت إنني في هذه الليلة لم أنم خوفاً من القادم وخوفاً عليها، تُفزعُني فكرةُ أن أفشل، لأنني للمرة الأولى لا أتعامل مع نفسي بل أتعامل مع طفلة ... جاء اليومُ المرتقب، ودخلت حصتي وسألتُ الله التوفيق، وضحكتُ بوجهها لأمدها بالأمان الذي أحتاجه أنا ربما، انتهيتُ من شرح الدرس وحان وقت السؤال، نظرتُ إليها وكلي أمل على رفع إصبعها الذي سأنتظره دقائقَ أو ربما ثوانيَ، ولكنها كانت بالنسبة لي مصيرية، وأخيراً رفَعَت طالبتي يدها وأجابت الإجابة الصحيحة بتعثر بعض الشيء، ولكنه يرضيني.

رأيتُ نظرات جميع الطالبات نحوها، وأدركتُ كم هي مُحقة، ما أن انتهت حتى أثنيتُ عليها وطلبتُ منهن التصفيقَ لها، وأخذت لقب «مبدعة الرياضيات» والتي كنتُ أستخدمُه فقط عند ورود سؤال يحتاج إلى تفكير. ضحِكَت جداً، وأصبحت الطالبات يتحدثن معها أكثر، بل ويسألنها عن أسئلة أُخرى في حصص متتالية. عادت لها ثقتُها بنفسها، واستغنت عن الصفر، فهي إنسانٌ ذو كيان، وددتُ البكاء فرحةً في هذه اللحظة التي قدمت فيها خارج الصف وهي تبكي وتشكرني من أعماقها، صادقةً بريئةً جميلةً كما وجهها، أدركت حينها أن إنجاز المعلمة لا يكون بالطالبة المتفوقة والقوية، بل بأخذ يد من يحتاج لها حقاً ليتغير. تغيرت صغيرتي وبدأت المشاركة في جميع الحصص، كانت تأتي لي بأوراق امتحاناتها في موادها الأخرى لتريني إياها، وأنا كنت أُثني عليها لتتقدم أكثر، في نهاية العام حصلت على تقدير جيد كتقدير نهائي بدلاً من المقبول أو الأقل ... أحمدُ الله كثيراً على الفرحة التي أدخلَتها بعفويتها إلى قلبي.

ما زال في جعبتي الكثير من الشغف والأمل والكثير من أحلام ووعود

وجوه مَن رحلوا ترافقني: جدتي، سوسنتي، وطفلي الصغير، الذين رحلوا عني في طريق نضالي الطويل وسعيي لأصنع لحياتي معنى، كأنني تقدمتُ وتركتهم، محملةً بالذكريات والأمل، أما الألم فقد اعتدتُ على تخطيه بكل قوة، لقد قدموا ليَ الكثير لأستمر.. الكثير من المحبة والحنان والتحفيز، كما قدمت لهم الكثير من الوعود بأن أستمر وأن أكون قوية وألا أخذلهم يوماً. في داخلي طفلةٌ هي اليومَ معلمةٌ تعمل جاهدةً على أن تصنع من ألمها وقوداً لخطواتها القادمة، وأن تحيك من خيوط الفقد حلماً آخر تلاحقه بكل محبة وشغف، ومن حولي كثيرٌ من الناس الذين أُحبهم وأستمد من عيونهم طاقتي وشغفي. شكراً لكل من قدم لي الدعم على طريق رحلتي الطويل، ومن يرعاني بحبه واهتمامه، شكراً لزوجي الذي كان لي عوناً ودعماً طيلة مسيرتي، شكراً لأهلي، عائلتي، أصدقائي، وشكراً لمؤسسة عبد المحسن القطّان الذين فتحوا لي آفاقاً جديدة للتعلم والاستكشاف والأمل، وأتاحوا لي فرصةَ التأمُّل والكتابة، وإعادة قراءة حكايتي وإنتاجها بكثير من الحب والشغف والنضال والفخر والأمل، والكثيرِ من الدموع.!

معلمة في مدرسة الخوارزمي الثانوية للبنات – الخليل

منتجات فنية أنتجها معلمون ومعلمات في أحد مساقات المدرسة الصيفية، 2018.